كتابة الحقيقة: الصعوبات الخمس (1935)

برتولت بريخت[1]

ترجمة (عن الإنجليزية): عيسى بشارة* ، مراجعة وإعداد: عمر القطان

في هذه الأيام،[2] يجب على كل شخص يرغب في مواجهة الأكاذيب والجهل، ويسعى إلى كتابة الحقيقة، أن يتغلّب على خمس صعوبات على الأقل. إذ يجب عليه أن يتحلّى **بالشجاعة** لكتابة الحقيقة عندما تلقى الحقيقة معارضةً في كلّ مكان، **وبالقدرة** على تمييزها على الرغم من أنها محتجبة، **وبالمهارة** للتعامل معها كسلاح، **وبالحكمة** لاختيار أولئك الذين ستكون الحقيقة فعّالةً في أيديهم، **وبالحيلة** لنشرها في أوساط هؤلاء الناس.

وهذه التحديات كبيرة جداً بالنسبة إلى كُتّاب يعيشون تحت وطأة الفاشية،[3] ولكنها تظلّ قائمة بالنسبة إلى كُتّابٍ تمكّنوا من الفرار أو تعرّضوا للنفي. وهي تُلقي بظلالها أيضاً على كُتابٍ يعملون في بلدان تتمتع بالحرية المدنية.

1. الشجاعة لكتابة الحقيقة

يبدو واضحاً أن من يكتب يجب أن يكتب الحقيقة في سياق لا يُضطّر فيه إلى طمسها، أو حجبها، وألاّ يتعمد كتابة شيء ما غير حقيقي. ولذلك، عليه ألا يتملّق القوي ويُضلّل الضعيف. لكن، طبعاً، من الصعب جداً عدم التذلّل للقوي، ومن المجدي كثيراً التغرير بالضعيف، ولكن من يثير غضب المالكين يصبح واحداً من فاقدي الملكية؛ لأن رفض تقاضي الأجر قد يؤدي إلى فقدان العمل، وربما السمعة، وبخاصة عندما تكون هبةً من القوي المتجبّر. وهذا يتطلّب شجاعة.

ولعلّ أزمان القمع المفرط عادة ما تشهد الكثير من الحديث عن أمور كبيرة ومهمة. وفي مثل أزمان كهذه، يقتضي الأمر شجاعةً للكتابة عن أشياء لا قيمة لها مثل الطعام، وتوفير المسكن للعمال، وبخاصة عندما يتحدّث الكثيرون بتبجّح عن الأهمية الحيوية للتضحية. وعندما تنهمر كل أشكال المديح على الفلاحين، يصبح من الشجاعة التحدّث عن الآلات والمخزون الجيد للطعام على نحو يجعل عملهم المشرّف أكثر إشراقاً. وعندما تعلن كل محطة إذاعية بشكل مدوٍّ أن الإنسان دون معرفة أو تعليم أفضل ممن درسَ وتعلّم، عندئذ يكون من الشجاعة أن نسأل: أفضل لمن؟ وعندما يدور الحديث عن الأجناس البشرية الكاملة وغير الكاملة،[4] يصبح من الشجاعة أن نسأل عمَّا إذا كان ذلك يشمل مظاهر الجوع والجهل والحرب التي تنتج التشوُّهات. ومن الشجاعة أيضاً أن يقول الإنسان الحقيقة عن نفسه وعن هزيمته، فالعديد من المضطهدين يفقدون قدرتهم على رؤية أخطائهم الخاصة، ويبدو لهم أن الاضطهاد ذاته هو الضيم الأعظم. ولعل المضطهدين فظيعون لأنهم ببساطة يَضطهدون، بينما يُعاني المُضطَهَدون بسببَ طيبتهم. لكن هذه الطيبة دُحِرت وهُزمت وقُمعت، وبالتالي فهي طيبة ضعيفة وسيئة وغير قادرة على الدفاع عن نفسها وغير واقعية. لذلك كله، لا يمكن افتراض أن الطيبة يجب أن تكون ضعيفة تماماً، كما يتحتم على المطر أن يكون رطباً. وعليه، فإنه من الشجاعة القول إن الطيّبين هُزِموا ليس لأنهم كانوا طيّبين، وإنما لأنهم كانوا ضعافاً.

من الطبيعي أن نكتب الحقيقة في كفاحنا ضد الكذب، وهذه الحقيقة يجب ألا تكون كلاماً عمومياً متعالياً ومبهماً. فعندما يُقال عن شخص ما إنّه قال الحقيقة، إنما يشير ذلك ضمناً إلى أن بعض الناس أو أكثرهم أو على الأقل أحدهم، قد قال شيئاً ما يُغايرُ الحقيقة -كذبة أم كلاماً عاماً- فالذي قال الحقيقة، قال شيئاً عملياً حقيقياً لا يمكن إنكاره وله صلة مباشرة بالموضوع.

ولا يتطلب الأمر كثيراً من الشجاعة للتفوّه بشكوى عامة، في جزءٍ من العالم لا يزال التذمر فيه عن شرّ الإنسانية وسيادة الوحشية مسموحاً، أو إطلاق صرخة جريئة واضحة تؤكد أن انتصار الروح الإنسانية شيء مؤكد. فهناك الكثير من الناس ممن يتظاهرون بأن المدافع موجّهة إليهم، بينما هم في الواقع مجرد هدف لمنظار الأوبرا.[5] هم يُطلقون مطالبهم العمومية إلى عالم من الأصدقاء وأشخاص لا يتسببون بالأذى. ويصرّون على عدالةٍ عمومية لم يفعلوا من أجلها أي شيء، ويطالبون بحرية عمومية وبحصة من الغنيمة التي طالما تمتعوا بها. ويعتقدون أن الحقيقة هي تلك التي يكون لها صدى جميل ليس إلا. وإذا كانت الحقيقة ستثبتُ أنها شيء إحصائي جاف أو حقيقي . . . شيء يصعب إيجاده ويتطلب دراسة، عندئذٍ فإنهم لا يميّزونها كحقيقة: إنها لا تُسكرهم. فهم يستحوذون فقطً على السلوك الخارجي لرواة الحقيقة، والمشكلة معهم هي: إنهم لا يعرفون الحقيقة.

2. القدرة على تمييز الحقيقة

بما أنه من الصعب كتابة الحقيقة لأنها مقموعة في كل مكان، يبدو لأغلب الناس أنها مسألة شخصية، سواء أُكتِبت الحقيقة أم لم تُكتب. فهم يعتقدون أن الشجاعة بمفردها تفي بالغرض، وينسون العقبة الثانية:

صعوبة إيجاد الحقيقة. ولعله من المستحيل التأكيد على أن الحقيقة يتم التحقّق منها بسهولة.

قبل كلّ شيء، نحن جميعاً نواجه المتاعب لدى إقرار ما هي الحقيقة التي تستحق القول. فعلى سبيل المثال، وأمام أعين العالم برمته، تقع أمةٌ عظيمة متحضّرة تلوَ الأخرى في أحضان الوحشية. وعلاوة على ذلك، يعرف كل شخص أن الحرب المَحلّية[6] التي تُشنّ بأكثر الأساليب ترويعاً ووحشية يمكن أن تتحوّل في أي لحظة إلى حرب خارجية، تُحيل قارتنا إلى كومة من الحطام. وهذا من دون شك حقيقة واحدة، لكن هناك حقائق أخرى. وعليه، ليس من قبيل الخطأ -على سبيل المثال- أن يكون للكراسي مقاعد، وأن يسقط المطر نزولاً إلى الأسفل. وهناك الكثير من الشعراء الذين يكتبون حقائق من هذا النوع، وهم مثل رسامين يزيّنون جدران سفينة غارقة بلوحات لعناصر من الطبيعة الصامتة. ولعل الصعوبة الأولى لا تزعجهم، فضمائرهم صافية لأن الحكام لا يستطيعون إفسادهم، ولكنهم غير منزعجين من صيحات المقموعين. لذلك، لا يتوقفون عن الرسم. إن لا حساسية سلوكهم تولّد فيهم تشاؤماً "عميقاً" يبيعونه بأسعار جيدة على الرغم من أن مثل هذا التشاؤم أكثر ملاءمةً لدى الذي يراقب هؤلاء الرسامين وأعمالهم. وفي الوقت نفسه، ليس من السهل التحقّق من أن حقائقهم هي حقائق عن الكراسي أو المطر. فهي عادة ما تبدو كحقائق عن أشياء مهمة. لكن عند تفحّصها عن كثب سرعان ما يتبين أنها لا تقول سوى: إن الكرسي هو كرسي، ولا أحد يستطيع أن يحول دون سقوط المطر إلى الأسفل.

بريخت في إحدى بروفات مسرحية "الأم شجاعة".

هم لا يكتشفون الحقائق التي تستحق الكتابة عنها. وعلى صعيد آخر، هناك أشخاص يتعاملون فقط مع أكثر المهام إلحاحاً، فتراهم يعشقون الفقر ولا يخشون الحكام، ومع ذلك لا يستطيعون إيجاد الحقيقة. وهؤلاء يفتقرون إلى المعرفة، فهم ممتلئون بالخرافات القديمة والنوازع السيئة التي غالباً ما كانت توضع فيما مضى من الأيام بكلمات جميلة. والعالم بالنسبة لهم معقّد جداً، حيث لا يعرفون الحقائق ولا يُدركون معنى العلاقات. فبالإضافة إلى الاستعداد الشخصي، فإن اقتناء الحقيقة يحتاج أيضاً إلى المعرفة وإلى منهجية في العمل. ولعل ما هو ضروري لجميع الكُتّاب في هذه المرحلة من الحيرة والتعقيد والتغيّر السريع، يكمن في معرفة جيدة للجدلية المادية[7] للاقتصاد والتاريخ. وهذه المعرفة يمكن اكتسابها من الكتب ومن التوجيه العملي إذا ما وجد الاجتهاد الضروري سبيلاً للتطبيق. فالكثير من الحقائق، أو على الأقل أجزاء منها، يمكن اكتشافها بطريقة مبسّطة تقود إلى اكتشاف الحقائق. والمنهجية جيدة في كل عملية بحث وتحقيق، لكن بالإمكان تحقيق اكتشافات دون استخدام أية منهجية -حتى دون التحقيق بالفعل. لكن في مثل هذا الإجراء العَرَضي، لا يصل المرء إلى نوع الحقيقة التي تُمَكّن الرجال من العمل. فالناس الذين يوثّقون قليلا مّن الحقائق فقط، ليس بمقدورهم ترتيب شؤون العالم وبسط سيطرتهم عليه بسهولة، على الرغم من أن الحقيقة لها هذه الوظيفة ليس إلا. ومثل هؤلاء الناس، لا يستطيعون الاستجابة لتحدي كتابة الحقيقة.

وإذا ما كان الشخص مستعداً لكتابة الحقيقة، وقادراً على تمييزها، فسوف يبقى أمامه ثلاث صعوبات أخرى.

3. مهارة التعامل مع الحقيقة كسلاح

الحقيقة يجب أن تُقال نظراً إلى النتائج التي يمكن أن تحققها. وكنموذج لحقيقة لا ينشأ عنها نتائج أو تعقبها نتائج خاطئة، يمكننا الإشارة إلى وجهة نظر واسعة الانتشار، تقول إن الشروط السيئة تسود في عدد من الدول نتيجةً للوحشية. وفي هذا المنطق، فإن الفاشية أتت إلى بعض الدول وكأنها قوة طبيعية لا مفر منها.

ووفقاً لوجهة النظر هذه، فإن الفاشية هي قوة ثالثة جديدة إلى جانب الرأسمالية والاشتراكية، بل وأقوى منهما، وإن الحركة الاشتراكية، بل والرأسمالية أيضاً، كانتا ستستمران لولا قدوم الفاشية. وهذا بالطبع زعم فاشي بحد ذاته، والقبول به هو استسلام للفاشية. إن الفاشية تمثّل مرحلة تاريخية للرأسمالية، وفي هذا السياق فهي شيء جديد وقديم في الوقت نفسه. ففي البلدان الفاشية تواصل الرأسمالية تواجدها، لكن على الطريقة الفاشية، والفاشية يمكن محاربتها مثل الرأسمالية بمفردها كشكل من أشكال الرأسمالية هو الأكثر وضوحاً وخزياً وقمعاً وغدراً. لكن كيف يستطيع أي شخص أن يقول الحقيقة عن الفاشية ما لم يكن راغباً في التحدّث جهاراً ضد الرأسمالية التي جاءت بها؟ وما الذي ستكون عليه النتائج العملية لمثل هذه الحقيقة؟

أولئك الذين يناهضون الفاشية دون أن يكونوا ضد الرأسمالية، ويتفجّعون من الهمجية التي وُلدت من الوحشية، هم أشبه بأناس يتمنّون تناول لحم العجل دون أن يذبحوا العجل. فهم راغبون في أكل العجل، لكنهم يكرهون مشهد الدم. وهم راضون ببساطة إذا ما غسل القصاب يديه قبل أن يَزِنَ اللحم. وهم ليسوا ضد علاقات الملكية التي ولّدت الوحشية، هم ضَد الوحشية نفسها فقط. تراهم يرفعون عقيرتهم ضد الوحشية، ويفعلون ذلك في بلدان تسودها بشكل خاص علاقات الملكية نفسها، لكن حيث يغسل القصابون أياديهم قبل أن يزنوا اللحم.

ربما تكون صيحات الاحتجاج العالية ضد الإجراءات الهمجية فعالةً طالما أن المستمعين يؤمنون بأن مثل هذه الإجراءات ليست مطروحة في بلدانهم. فبعض البلدان لا تزال قادرة على الاحتفاظ بعلاقات الملكية الخاصة بها، بأساليب تبدو أقلّ عنفاً من تلك المستخدمة في بلدان أخرى. ولعل الديمقراطية لا تزال تُوظَّف في هذه البلدان لتحقيق النتائج التي يلزم من أجلها العنف في بلدان أخرى، وتحديداً لضمان الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. فالاحتكار الخاص للمصانع والمناجم والأرض يخلق ظروفاً وحشية في كل مكان، لكن في بعض الأماكن لا تصدُم هذه الظروف العين بقوة. فالوحشية تصدم العين فقط عندما يتم حماية الاحتكار عن طريق العنف المعلن.

بعض البلدان[8] التي لم تجد حتى الآن أن من الضروري الدفاع عن احتكاراتها الوحشية عن طريق الاستغناء عن الضمانات الرسمية للدولة الدستورية، ومظاهر الرفاه كالفن، والفلسفة، والأدب، هذه البلدان بشكل خاص ترغب في الاستماع إلى زوّار يدينون بلادهم الأم؛ لأن مثل تلك الظواهر لا توجد لديها. فهي تنصت بفرح لأنها تأمل في انتزاع بعض الفوائد في الحروب المستقبلية. تُرى هل سنقول إن الذين يطالبون بصوت عالٍ بحرب صارمة ضد ألمانيا -على سبيل المثال- "لأن ذلك البلد يمثلُ الآن الوطن الحقيقي للشيطان شريك جهنم وموئل المناوئين للمسيح؟"، هل سنقول إن هؤلاء يقولون الحقيقة؟ من الأفضل أن نقول إن هؤلاء الناس حمقى وخطرون. ولاستخلاص العبرة من هذا الهراء: طالما أن الغازات السامة والقنابل ليست قادرة على تمييز المذنبين عن الأبرياء، يجب إبادة ألمانيا كلها- كل البلد وشعبه!

إن الإنسان الذي لا يعرف الحقيقة يعبّر عن نفسه بلغة متعالية وعامة وغير دقيقة. فتراه يصرخ على الألماني ويتذمر من الشيطان عموماً، بحيث أن من يسمعه لا يستطيع أن يفهم ما الذي سيفعله. هل سيقرّر ألا يكون ألمانياً؟ هل ستتلاشى جهنم لو أنه نفسه كان جيداً؟ فالحديث السخيف عن الوحشية التي تولد من الوحشية هو من هذا النوع. "مصدر الوحشية هو الوحشية، ولا يمكن مواجهتها إلا بالثقافة التي تأتي من التعليم".

كل ذلك الكلام يُصاغُ بلغة عامة، ولم يُقصد به ليكون دليلاً للعمل، وهو في الواقع غير موجّه لأحد.

مثل هذه الأوصاف الغامضة تشير فقط إلى بعض الحلقات في سلسلة من الأسباب. فنهجها في الغموض المغرق في نزعته الظّلامية، يحجب القوى الحقيقية التي تدفعنا نحو الكارثة. ولو سُلّط الضوء على هذه المسألة سوف يُظهر فوراً أن الكوارث يتسبّب بها أناس معيّنون، فنحن نعيش في زمن يتقرّر فيه مصير الإنسان على يد بشر.

إن الفاشية ليست كارثة طبيعية يمكن فهمها ببساطة بلغة "الطبيعة الإنسانية". لكن حتى عندما نتعامل مع كوارث طبيعية، تكون هناك طرق لتصويرها جديرةٌ بالبشر؛ لأنها تحتكم إلى روح الإنسان المناضلة. فبعد الزلزال المريع الذي دمّر يوكوهاما، نشرت مجلات أميركية صوراً عدة تُظهر كومةً من الدمار. وتقول العناوين: "لم يتلاشَ الحديد!".

وبالفعل يرى المرء من النظرة الأولى حطاماً فقط، ثم سرعان ما يتبين بعد قراءة العنوان أن بعض البنايات العالية قد بقيت واقفة. ومن بين الأوصاف المتعدّدة التي يمكن أن تُطلق على زلزال ما، تلك التي يصوغها مهندسو البناء بخصوص التغيرات الجارية في الكرة الأرضية، وقوة التوترات، وغيرها من الأمور ذات الأهمية الكبرى، لأنها ستقود إلى بناء مستقبلي يصمد أمام الزلازل.

وإذا كان هناك من يرغب في وصف الفاشية والحرب والكوارث الكبرى التي لا تمت بصلة إلى الكوارث الطبيعية، يجب عليه أن يفعل ذلك بلغة الحقيقة العملية. ويجب أن يُظهر أن هذه الكوارث تتسبّب بها الطبقات المالكة للسيطرة على أعداد هائلة من العمال الذين لا يملكون وسائل الإنتاج.

وإذا رغب أحدهم في أن يكتب بنجاح الحقيقة عن الظروف الوحشية، عندئذ عليه أن يكتبها، بحيث يمكن تحديد وسائل تجنب الوحشية. وإذا كان بالإمكان تحديد تلك الوسائل، تصبح محاربة الوحشية أمراً ممكناً.

4. الحكمة لاختيار أولئك الذين ستكون الحقيقة فعالة في أيديهم

إن التجارة المتأصّلة في الكتابة النقدية والوصفية، وحقيقة أن الكاتب ليس مجبراً على تحمل عواقب ما يكتب، كلّ ذلك جعله يعمل تحت انطباع خاطئ. فهو يعتقد أن قارئه أو صاحب عمله إنما يُروّج لما كتب. ويفكر الكاتب: لقد قلتُ كلمتي، وأولئك الذين يرغبون في الاستماع سوف يسمعونني. ولكن في الحقيقة أنه قال كلمته، وفقط أولئك القادرون على الدفع يستمعون إليه. لقد قيلَ الكثير -مع أنه يظل قليلاً جداً- عن هذا الموضوع: أود فقط أن أؤكد على أن "الكتابة لشخص ما" قد تحوّلت إلى مجرد "كتابة". لكن الحقيقة لا يمكن كتابتها فقط، فهي يجب أن تُكتب لشخص يكون قادراً على فعل شيء ما بها.

ولعل عملية تمييز الحقيقة هي الشيء نفسه بالنسبة إلى الكتّاب والقراء على حد سواء. ولكي نقول أشياء حسنة، على المرء أن يكون مستمعاً جيداً، ويجب أن يسمع أشياء جيدة. فالحقيقة يجب أن تُقال بتروٍّ، وأن يُستَمَعَ إليها بتروٍّ. وبالنسبة لنا، نحن الكتّاب، من المهم أن نعرف لمن نروي الحقيقة ومن يرويها لنا.

يجب أن نروي الحقيقة عن الظروف السيئة، لأولئك الذين تكون الظروف سيئة بالنسبة لهم. ويجب أن نتعلم الحقيقة منهم. كما يجب ألا نخاطب الناس الذين لديهم وجهات نظر معينة فحسب، بل الناس الذين لديهم هذه الآراء أيضاً بسبب وضعهم، لأنّ المستمعين يتغيرون باستمرار. وحتى الجلادون يمكن مخاطبتهم عندما تتوقف رواتبهم، أو عندما يصبح عملهم خطيراً عليهم. فالفلاحون البافاريون[9] كانوا ضد أي نوع من الثورة، لكن عندما استمرت الحرب (العالمية الأولى) طويلاً، ولم يجد الأبناء العائدون من الخنادق مساحة يسكنونها في مزارعهم، أصبح من الممكن كسبهم إلى جانب الثورة.

من المهم بالنسبة إلى الكاتب أن يضرب على الوتر الحساس للحقيقة.

فعادة ما نسمعه بنبرة هادئة وكئيبة، نبرة مَن لا يُؤذون ذبابة. وبسماع هؤلاء يزداد البؤساء بؤساً. وأولئك الذين يستخدمون هذه النبرة، قد لا يكونون أعداء، لكنهم بالتأكيد ليسوا حلفاء. فالحقيقة مولعة بالقتال، لا تكافح ضد الكذب فحسب، بل ضد أناس ينشرون الكذب على وجه التحديد.

5. الحيلة لنشر الحقيقة بين الكثير من الناس

الكثير من الناس يشعرون بالفخر لأنهم يمتلكون الشجاعة الضرورية من أجل كتابة الحقيقة، وبالسعادة لأنهم نجحوا في إيجادها، وربما بالتعب والإرهاق من العمل الضروري لصياغتها بشكل عملي، وبنفاد الصبر لأنها يجب أن تُدرك من جانب أولئك الذين تهمهم مصالحهم، ويرون أنه من غير الضروري استخدام أية حيلة خاصة لنشر الحقيقة. ولهذا السبب، فإنهم غالباً ما يُضحّون بالتأثير الكلي لعملهم. إن الحيلة طالما استُخدمت لنشر الحقيقة لاسيما عندما كانت الحقيقة تُغيب أو تُقمع. وقد دحض كونفوشيوس[10] تقويماً وطنياً وتاريخياً قديماً عندما غيّر كلمات معينة. ويقول التقويم: "حاكم (هون) قتل الفيلسوف (وان) لأنه قال كذا وكذا". غير أن كونفوشيوس استبدل كلمة "قتل" بـ "قتل عمداً". ولو أن التقويم قال إن الطاغية الفلاني مات بالاغتيال، لكان كونفوشيوس قد استبدلها بـ "الإعدام". وبهذه الطريقة فتح كونفوشيوس الطريق لتفسير جديد للتاريخ.

وفي زمننا الحالي، كل من يقول كلمة "السكان" بدلاً من "الشعب" أو "العرق"، وأيضاً "أرضاً مملوكة ملكاً خاصاً" بدلاً من "تربة"، إنما يسحب بهذا العمل البسيط الدعم الذي تحظى به أكاذيب كثيرة. فهو ينزع عن هذه الكلمات تأثيراتها البغيضة الغامضة. فكلمة السكان تنطوي على معنى لوحدة معينة ومصالح مشتركة ومحدّدة. وبناء على ذلك، يجب أن تُستخدم فقط عندما نتحدث عن مجموعة من البشر تربطهم مصالح معينة. إن سكان منطقة محّددة يمكن أن تكون لديهم مصالح عديدة مختلفة، وربما متعارضة، وهذه حقيقة تُطمس حين يُشار إليهم بكلمة "الشعب". وعليه، فإن من يتحدث عن "التربة" ويصف بحيوية أثر الحقول المحروثة على الأنف والعين، مركّزاً على رائحة الأرض ولونها، إنما يدعم أكاذيب الحكام، لأن خصوبة التربة ليست هي القضية، ولا حب الرجال للتربة، ولا جهودهم في العمل بها، فما هو مهم إنما هو ثمن الحبوب وثمن اليد العاملة. وأولئك الذين يجنون المكاسب من التربة، ليسوا الناس أنفسهم الذين يقطفون الثمار منها، والرائحة المنبعثة من الأرض المحروثة غير معروفة في أسواق السلع التي لها رائحة مختلفة تماماً. لذلك، فإن عبارة "الأرض المملوكة ملكاً خاصاً" هي الصحيحة، وهي توفّر فرصة أقل للخداع.

وحيثما يوجد قمع، يجب أن تُوظّف كلمة "الطاعة" بدلاً من "الانضباط"؛ لأن الانضباط يمكن فرضه ذاتياً، وبالتالي يحوى شيئاً نبيلاً تفتقد إليه الطاعة. والكلمة الأفضل من "الشرف" هي "الكرامة الإنسانية" التي عادة تأخذ الفرد بعين الاعتبار. وجميعنا نعرف جيداً أي نوع من الأوغاد يُقحمون أنفسهم ويصرحون دفاعاً عن شرف الناس، فتراهم يوزّعون الشرف بكرم على الجائعين الذين يُطعمونهم. ولا يزال نوع ذكاء كونفوشيوس صالحاً إلى يومنا هذا. ويصف توماس مور[11] في كتابه المدينة الفاضلة (Utopia) بلداً تسوده ظروف عادلة، بلداً ليس هو إنجلترا التي عاش فيها، لكنه يُشبه إنجلترا إلى حدٍ بعيد باستثناء ما يتعلق بالظروف الحياتية.

لقد تمنى لينين[12] أن يصف الاستغلال والقمع في جزيرة سخالين، لكن كان من الضروري له أن يحذر من الشرطة القيصرية. وبدلاً من روسيا كتب عن اليابان، وبدلاً من سخالين كتب عن كوريا.

وقد ذكّرت أساليب البرجوازية اليابانية جميع قرائه بالبرجوازية الروسية وسخالين. لكن لم يُلقَ باللوم على كتيّبه، لأن روسيا كانت معادية لليابان. فالأشياء الكثيرة التي لا يمكن قولها في ألمانيا عن ألمانيا يمكن قولها عن النمسا.

هناك العديد من الوسائل المخادعة التي يمكن بها خداع دولة تنزع إلى الشك والارتياب.

وقد كافح فولتير[13] تعاليم الكنيسة حول العجائب عبر كتابة قصيدة جريئة عن "خادمة أورليان"، جان دارك.[14] فوصف العجائب التي سنحت للعذراء أن تبقى على عذريتها وسط جيش من الرجال وضمن البلاط الملكي الفرنسي الحاشد بالارستقراطيين والرهبان! وباستخدامه أسلوباً أنيقاً، ووصفه للمغامرات المثيرة للشهوة مثل الحياة المترفة للطبقة الحاكمة، فإنه ألقى بظلال من الشك على دين يتيح لهذه الطبقة سُبُل التمتّع بحياة رخوة خليعة. وقد أتاح المجال أيضاً لأعماله –وإن كان ذلك بطرق غير قانونية– للوصول إلى أولئك الذين يستهدفهم. ومن بين هؤلاء أفراد في السلطة، إما أنهم شجعوا نشر كتاباته، وإما تسامحوا إزاءها. وبقيامهم بذلك، فإنهم كانوا يسحبون دعمهم للشرطة التي دافعت عن حياة المتعة التي كانوا يعيشونها. وهناك مثال آخر: لوكريشياس[15] العظيم الذي يقول بشكل معبّر إن أحد بواعث التشجيع الرئيسية على انتشار فلسفة الإلحاد كان جمال أشعاره.

وفي الحقيقة، يمكن أن يُضفي المستوى الأدبي الرفيع لمقولة ما نوعاً من الحماية. لكن غالباً ما تثير الشك. وفي مثل هذه الحالة، ربما يكون من الضروري خفض مستواها بقصد. وهذا ما يحدث، على سبيل المثال، عندما يتم استخدام الشكل الأدبي البوليسي الشعبي كوسيلة غير مباشرة لوصف ظروف المعيشة السيئة لبيئة ما. ومثل هذه الأوصاف من شأنها أن تبرّر استخدام الشكل الأدبي البوليسي. وقد خفّض شكسبير العظيم بقصد مستوى عمله لأسباب ليست ذات أهمية أقل. ففي المشهد الذي تُواجه فيه أم كريولانس[16] ابنها الذي ينوي العودة إلى مسقط رأسه، يتعمد شكسبير إلى جعل خطابها إلى ابنها خطاباً ضعيفاً. وقد كان في غير محلّه بالنسبة إلى شكسبير أن يجعل كريولانس ممتنعاً عن تنفيذ خطته لأسباب جيدة. وكان من الضروري أن يجعل كريولانس يستسلم لعاداته القديمة بنوع من التردد المنهزم الذي يعكس شخصيته.

ويوفّر شكسبير نموذجاً من الذكاء يُستخدم في نشر الحقيقة: هذا خطاب أنطوني فوق جثمان يوليوس قيصر، حيث يؤكد أنتوني باستمرار أن بروتوس رجل جدير بالاحترام، لكنه يصف الجريمة أيضاً، وهذا

الوصف للجريمة أكثر تأثيراً من مديحه لمقترفها. وبناء على ذلك، يسمح الخطيب لنفسه أن يغرق بالحقائق ويتركَها تتحدّث عن نفسها. وقد وظّف أحد الشعراء المصريين قبل أربعة آلاف سنة الأسلوب نفسه. وكان ذلك وقتاً شهد صراعات طبقية عظيمة. فالطبقة التي كانت تحكم مصر حتئذ كانت تدافع عن نفسها بصعوبة ضد معارضِها العظيم، ذلك الجزء من السكان الذي خدمها حتى الآن. وفي القصيدة يظهر رجل حكيم في محكمة الحاكم ويدعو من أجل الكفاح ضد العدو الداخلي، ويعرض وصفاً طويلاً ومؤثراً لحالة الفوضى التي نشأت عن انتفاضة الطبقات السفلى. وجاء في هذا الوصف:

هكذا إذن: النبلاء ينوحون والخدم يبتهجون. كل مدينة تقول: دعنا نُخرج الأقوياء من وسطنا. المكتبات محطمة ومفتوحة والوثائق قد أُزيلت. العبيد يصبحون سادةً.
هكذا إذن: ابن رجل ذي حسب لم يعدْ بالإمكان تمييزه. وليد ربة المنزل يصبح ابناً لخادمتها.
هكذا إذن: المواطنون تم ربطهم بالطواحين. أولئك الذين لم يكونوا رأوا النور قبلئذ يرونه الآن.
هكذا إذن: الصناديق الفقيرة المصنوعة من خشب الأبنوس تُحطَّم، وخشب السيسبان الثمين يُحوَّل إلى أسِرَّة.
انظروا، العاصمة وقد انهارت في غضون ساعة.
انظروا، فقراء الوطن وقد أصبحوا أغنياء.
انظروا، من لا خبزَ لديه كيف أصبح الآن يمتلك مخزناً للحبوب. ومخزن حبوبه ممتلئ بممتلكات شخص آخر.
انظروا، من الجيد للرجل أن يكون قادراً على تناول طعامه.
انظروا، مَن ليس لديه حبوب يمتلك الآن مخازن حبوب. وأولئك الذين قبلوا الهبات الذليلة من القمح يوزّعونها الآن.
انظروا، مَن لم يمتلك نيرَ الثيران يمتلك الآن قطعاناً، ومن لم يستطع الحصول على حِملٍ من الأثقال يمتلك الآن قطعاناً من الماشية.
انظروا، مَن لم يستطع بناء كوخ لنفسه يمتلك الآن أربعة جدران قوية.
انظروا، الوزراء يبحثون عن ملجأ في مخزن القمح، ومن سُمِحَ له بصعوبة بالنوم على الرصيف يمتلك الآن سريراً.
انظروا، من لم يستطع أن يبني لنفسه زورقاً يمتلك الآن سفناً، وعندما ينظر مالكها إليها الآن يجد أنها لم تعدْ ملكاً له.
انظروا، أولئك الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا يرتدون أسمالاً بالية، ومن لم ينسج شيئاً لنفسه يمتلك الآن أكثر الملابس الكتانية نعومةً.
فالغني يأوي إلى فراشه وهو يشعر بالعطش، ومن كان يتوسّل إليه ذات يوم من أجل بقايا شراب أصبح لديه الآن جعة قوية.
انظروا، من لم يفهم شيئاً من الموسيقى يملك الآن قيثاراً، ومن لم يُغنِّ إليه أحد ها هو يُعلي من شأن الموسيقى.
انظروا، من أوى إلى فراشه وحيداً دون زوجة، لديه الآن نساء، وأولئك الذين نظروا إلى وجوههم في الماء يمتلكون الآن مرايا.
انظروا، الأعلى مقاماً في البلد راح يتنقّل هنا وهناك دون أن يجد عملاً.
لا شيء يُرفع إلى العظيم من الآن فصاعداً. ومن كان رسولاً فيما مضى يبعث الآن آخرين لحمل رسائله.
انظروا، خمسة رجال أرسلهم سيدهم إلى الخارج. ها هم يقولون: ارحل أنت بنفسكَ فقد وصلنا.

من الملفت أن هذا الوصف يوحي بنوع من الفوضى التي تبدو مرغوبةً بالنسبة إلى المقهورين. ومع ذلك، فإن قصد الشاعر ليس شفافاً، فهو يُدين هذه الظروف لكنه يُدينها بشكل ضعيف.

لقد اقترح جوناثان سويفت[17] في كراسته الشهيرة بأن أحوال الأرض ستعود إلى الرخاء إذا ما تم ذبح أطفال الفقراء وبيع لحمهم. وقد عرض حسابات دقيقة تُظهر مدى المكاسب التي ستحققها الطبقات الحاكمة إذا لم تتوقف أمام شيء على الإطلاق. تظاهر سويفت بالسذاجة، ودافع بقدر كبير من الحماسة عن طريقة في التفكير كان يكرهها، متخذاً، كموضوع له، مسألةً أوضحت لكل شخص قسوة تلك الطريقة في التفكير. فأي شخص يمكنه أن يكون أذكى من سويفت أو أكثر إنسانية، وبخاصة أولئك الذين لم يتحملوا حتى الآن عبء التفكير في النتائج المنطقية لوجهات نظرهم. ولعل الدعاية التي تحفز على التفكير في أي مجال من المجالات تظل مفيدة للمقهورين والمضطهدين. ومثل هذه الدعاية ضرورية جداً، ففي ظل الحكومات التي تدافع عن الاستغلال، يُشتَهان بالفكر.

... وفي بروفة أخرى من مسرحية "الأم شجاعة".

وأي شيء يخدم هؤلاء المضطهدين يُعتبر بلا قيمة. ومن غير المهم الاهتمام دوماً بالحصول على ما يكفي لتناول الطعام. ومن غير المهم معارضة التكريم الذي يُقدَّم إلى المدافعين عن البلاد التي يجوعون فيها. ومن غير المهم الشك بالزعيم عندما تقود زعامته إلى محن وأزمات. ومن غير المهم الامتناع عن العمل الذي لا يُطعم العامل، والتمرد ضد القهر وضد اقتراف أعمال حمقاء، وعدم المبالاة بعائلة لم يعدْ بالإمكان إسداء المساعدة إليها عن طريق أي قدر من الاهتمام. فالجوعى يُلعنون كذئاب شرهة ليس لديهم ما يدافعون عنه. وأولئك الذين يشكون بمضطهّديهم يُتهمون بأنهم يشكّون بقوتهم، وأولئك الذين يطالبون بأجر مقابل عملهم يُنبذون كعاطلين عن العمل. في ظل مثل هذه الحكومات، يُعتبر التفكير عموماً بلا قيمة، ويقع في دائرة انعدام السمعة الطيّبة. فالتفكير لا يُعلّم في أي مكان، وحيثما يبرز يتم القضاء عليه.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ثمة مجالات معينة حيث لا يعرَض الاهتمام بانتصارات الفكر والعلم للعقاب. وهذه هي المجالات التي تحتاج فيها الدكتاتوريات إلى التفكير. فعلى سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى انتصارات التفكير في مجالات العلم العسكري والتكنولوجيا، وحتى في أمور مثل تحسين عملية توزيع الصوف من خلال تنظيم أفضل أو اختراع خامات بديلة. ولعل غُش الأغذية وتدريب الشباب لخوض غمار الحرب -كل هذه الأمور تتطلب تفكيراً، وفي الإشارة إلى مثل هذه الأمور يمكن وصف عملية التفكير. فالإشادة بالحرب -الهدف الأوتوماتيكي لمثل هذا التفكير- يمكن تفاديها بذكاء، وبهذه الطريقة فإن التفكير الذي ينشأ عن سؤال حول كيفية شن حرب يمكن أن يقود إلى سؤال آخر حول ما إذا كان للحرب أي مغزى. وبناء على ذلك، يمكن أن ينطبق التفكير على سؤال آخر: كيف يكون بالإمكان تفادي حرب لا مغزى منها؟

طبعاً، نادراً ما يُسأل هذا السؤال في العلن. وفي مثل هذه الحالة، ألا نستطيع الإفادة من التفكير المحفّز لدينا؟ هل يمكن تأطيره بحيث يقود إلى فعل؟ يمكن.

وباستمرار قمع الجزء الأكبر من السكان على يد الجزء الآخر (الأصغر) في مثل وقتنا هذا، فإن موقفاً معيّناً للسكان يصبح ضرورياً، وهذا الموقف يجب أن يشمل كلّ المجالات. فاكتشاف الإنجليزي داروين[18] في مجال علم الحيوان ربما يهدّد فجأةً الاستغلال، ولكن لوقت ما واجهت الكنيسة ذلك التهديد بانفراد، ولم يلاحظ باقي المواطنين أي شيء غير عادي. كما أدت أبحاث الفيزيائيين في السنوات الأخيرة إلى نتائج في مجال المنطق ربما تهدّد فعلاً عدداً من العقائد التي تبرر مواصلة القمع. وكان هيغل،[19] فيلسوف الدولة البروسية، خاض تحقيقات معقدة في مجال المنطق، واقترح من خلال هذه التحقيقات على ماركس ولينين، مؤسسيْ الثورة البروليتارية، أفكاراً كثيرة يتعذر حصر قيمتها.

إن تطور العلوم المختلفة متداخل لكنه متفاوت وغير منتظم. والدولة ليست قادرة على إبقاء عينها على كل شيء. ولعلِ حَرَس الارتقاء بالحقيقة يستطيعون اختيار مواقع عراك غير مراقبة نسبياً. وما يهم هنا هو تعليم نوع التفكير الصحيح، ذلك النوع الذي يتحقّق في الطبيعة المتقلبة والمتغيرة لكل الوقائع ولكل عمليات الحياة. فالحكام يكرهون إلى حد كبير التغيّرات، ويتمنون لو أن الشمس والقمر لا يتحرّكان. عندئذٍ، لن يجوع أحد ولن يرغب في تناول عشائه! وعندما يطلق الحكام رصاصةً، فإنهم لا يريدون من العدو أن يكون قادراً على الرد، ورصاصتهم يجب أن تكون الأخيرة. ولعل طريقة التفكير التي تُلحّ على التغيير هي طريقة جيدة لحفز المضطهدين وتحريضهم.

ثمة فكرة أخرى يمكن أن يواجه بها المنتصرون، وهي أنه في كل شيء، وفي كل ظرف، يبرز تناقض وينمو. ومثل هذا الموقف (الذي له علاقة بالجدلية والمبدأ الذي يقوم على انسياب جميع الأشياء وتغيرها) يمكن تثبيته في الواقع الذي يفلت لوقت ما من مراقبة الحكام. ويمكن توظيفه في علم الأحياء أو الكيمياء على سبيل المثال. لكن بالإمكان أن نشير إليه أيضاً عن طريق وصف مصير عائلة ما، حيث لن يثير كثيراً من الانتباه.

فاعتمادُ كل شيء على عوامل عدة تتغير باستمرار هو فكرة خطرة بالنسبة إلى الدكتاتوريين، وهذه الفكرة يمكن أن تظهر في مظاهر عدة دون أن تعطي الشرطة أي شيء تضع عليه إصبعها.

إن وصفاً كاملاً لكل العمليات والظروف التي يواجهها رجل يريد أن يفتح دكاناً لبيع التبغ يمكن أن يمثّل ضربةً للدكتاتورية. وأي شخص يفكر ملياً في ذلك سوف يرى على الفور لماذا. فالحكومات التي تقود الجماهير إلى البؤس يجب أن تحترس من تفكير الجماهير إزاء الحكومة. ومثل هذه الحكومات تتحدّث كثيراً عن المصير. والمصير هو الذي يُلقى باللائمة عليه وليس الحكومات، جراء جميع المصائب. وأي شخص يحقق في سبب هذه المصائب يُعتقل قبل أن يستوعب أن الحكومة هي التي يجب أن يُلقى باللائمة عليها. لكن من الممكن تقديم معارضة عامة لكل هذا الهراء عن المصير، إذ يمكن الإشارة إلى أن مصير الإنسان يصنعه البشر.

وهذا شيء آخر، يمكن القيام به بطرق عدة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يروي شخص ما قصة مزرعة فلاح، لنقل مزرعة في آيسلاند. القرية برمتها تتحدث عن لعنة تجتاح هذه المزرعة. إحدى الفلاحات تُلقي بنفسها في بئر والفلاح المالك يشنق نفسه. وذات يوم يتم زفاف بين ابن الفلاح وفتاة يكون مهرها هكتارات[20] عدة من أرض جيدة. ويَبدو أن اللعنة تنقشع عن المزرعة. عندئذ تنقسم القرية في حكمها على سبب هذا التحوُّل السعيد للأحداث. بعضهم يعزونه إلى التصرّف المرح لابن الفلاح الشاب، في حين يعزوه آخرون إلى الحقول الجديدة التي أضافتها الزوجة الشابة إلى المزرعة التي أصبحت كبيرة بما يكفي لتوفير سبل العيش.

لذلك، حتى في قصيدة تصف ببساطة مساحة من الأرض، يمكن تحقيق شيء ما إذا كانت تظهر الأشياء التي يصنعها الرجال أمامنا بوضوح.

الحيلة ضرورية لنشر الحقيقة.

ملخص

إن الحقيقة العظمى لزمننا هي أن قارّتنا تمهّد الطريق للوحشية؛ لأن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج يتم الاحتفاظ بها بالعنف. ومجرّد تمييز

هذه الحقيقة ليس كافياً، ولكن ما لم تُميَّز فلا يمكن اكتشاف حقيقة أخرى ذات أهمية.

ما الفائدة من كتابة شيء ما جريء يُظهرُ أن الظرف الذي نقع فيه وحشي (وهذا صحيح) ما لم يتضح سبب وقوعنا فيه؟ يجب أن نقول إن التعذيب يُستخدم للحفاظ على علاقات الملكية. وللتأكد من ذلك، عندما نقول هذا نفقد عدداً كبيراً من الأصدقاء ممن هم ضد التعذيب فقط؛ لأنهم يفكرون بأن علاقات الملكية يمكن دعمها دون تعذيب – وهذا غير صحيح. يجب أن نقول الحقيقة عن الظروف الوحشية في بلدنا لوضع حد لها، وبشكل يغيّر علاقات الملكية. وعلاوة على ذلك، يجب أن نقول هذه الحقيقة إلى أولئك الذين يعانون كثيراً من علاقات الملكية القائمة، والذين لهم المصلحة الكبرى في تغييرها – العمال، وأولئك الذين نحثّهم ليكونوا حلفاءهم؛ لأنهم أيضاً لا يملكون بالفعل سيطرة على وسائل الإنتاج، حتى وإن كانوا يحصلون على قدر من المكاسب. ويجب أن نقوم بذلك بذكاء، فجميع هذه الصعوباتً الخمس لا بدّ من التغلّب عليها مرة واحدة، لأننا لا نستطيع اكتشاف الحقيقة عن الظروف الوحشية دون التفكير بأولئك الذين يعانون منها، ولا نستطيع أن نباشر عملاً ما لم نتخلّص من أي أثر للجبن. وعندما نسعى لتبيّن الحالة الحقيقية للأمور فيما يتعلق بأولئك المستعدين لاستخدام المعرفة التي نمنحها لهم، عندئذٍ يجب أن نفكّر أيضاً بضرورة تقديم الحقيقة لهم بطريقة تجعلها سلاحاً في أيديهم، وفي الوقت نفسه علينا أن نفعل ذلك بحيلة، بحيث لا يكتشف العدو أو يعيق عرضنا للحقيقة.

هذا هو المطلوب من كاتب عندما يُطلب منه كتابة الحقيقة.

الهوامش

[1] برتولت بريخت (1898–1956)، شاعر وكاتب مسرحي ألماني كبير. بلور بريخت فكرته عن المسرح الملحمي كمقابل للمسرح الدرامي التقليدي في ظل الفساد السياسي وغياب الوعي الشعبي في ألمانيا أيام الحكم النازي. سعى من خلال هذا اللون المسرحي إلى خلق جمهور يستطيع التفاعل مع الأحداث ليتحرر من دوره كمشاهد سلبي. في العام 1933، قرر بريخت أن يهاجر إثر تولي النازية الحكم في ألمانيا، حيث منعت أعماله وحرقت. جال في أوروبا، ثم ذهب إلى أميركا (كاليفورنيا). عاد سنة 1949 ليستقر نهائياً في برلين، فأدار فرقة المجموعة البرلينية (Berliner Ensemble)، ومن ثم مسرحه الملحمي.
طبعت السياسة والنضال السياسي معظم أعمال بريخت المسرحية والأدبية. وكان لكتابات فيلسوفي الاشتراكية الكبيرين كارل ماركس (1818–1883) وفردريخ إنجلز (1820–1895) التحليلية بالغ الأثر عليه، فحاول بريخت خلال مسيرته الفنية مخاطبة أكبر عدد من المشاهدين، لإقناعهم بأهمية تحرير أدوات إنتاجهم من سيطرة رأس المال. كانت أوبرا **القروش الثلاثة** (1931) أولى مسرحياته، ولاقت نجاحاً كبيراً وتضمنت المسرحية نقداً لاذعاً للرأسمالية البرجوازية. من أهم أعمال بريخت الأخرى: **حياة جاليليو، الأم شجاعة وأبناؤها، طبول في الليل، دائرة الطباشير القوقازية، السيد بونتيلا وعبده ماتي**.

* © الترجمة العربية والهوامش: المشروع الفلسطيني للمرئي والمسموع، 2006.

[2] يعني السنوات الأولى بعد استلام أدولف هتلر زمام الحكم في ألمانيا، حيث توهم الكثيرون، في ألمانيا وخارجها، أن مشروعه الفاشي فيه من الحكمة والعدالة ما يكفي لتجنب اندلاع حرب عالمية ثانية ولنهوض ألمانيا من نكبتها التي وقعت فيها نتيجة الحرب العالمية الأولى.

[3] الفاشية مصطلح استُعمِل للمرة الأولى للإشارة إلى الحزب اليميني المتطرف الذي أسسه في إيطاليا بنيتو موسوليني في عشرينيات القرن العشرين، وهو يشير إلى حكومة مستبدة يرأسها نظام دكتاتوري. ويستعمل المصطلح للإشارة إلى كل نظام حكم يسود فيه الاستبداد والشمولية وعدم احترام الفرد وحقوقه والأولوية التامة المعطاة للدولة، ولاسيما لوسائل العنف فيها؛ مثل الجيش، والشرطة، ولأفكار التضحية من أجل المجموعة، والإصرار على النمطية التامة في السلوك المجتمعي (وفي بعض الأحيان، السلوك الشخصي). وقد سُميَت شتى الأيديولوجيات بالفاشية في مراحل مختلفة من تاريخها: فقيل عن الحكم النازي اليميني المتطرف بأنه فاشي، كما استخدم المصطلح لوصف النظام الشيوعي السوفييتي أثناء عهد جوزيف ستالين، كما يستخدم اليوم لوصف النظام الديني المتبع في الجمهورية الإيرانية، وأيضاً بعض الحركات الدينية مثل حركة الطالبان الأفغانية.

[4] البشرية غير الكاملة تأتي خلافاً للبشرية الكاملة، وهو مبدأ التفوق العرقي الذي استحدثه أدولف هتلر.

[5] يعني أنهم عرضة للفرجة فقط وليسوا مهددين.

[6] يشير هنا إلى الصراعات العنيفة التي جرت داخل ألمانيا بعد تولي هتلر الحكم.

[7] الفكرة الأساسية في الجدلية المادية هي أن العالم (والتاريخ) لا يجوز أن يعتبر كمجموعة معطيات منجزة وثابتة، لكن كمجموعة من الظواهر المتناقضة المتطورة القابلة للتغيير دائماً.

[8] يقصد هنا تلك البلاد الرأسمالية التي كانت تسود فيها الديمقراطية الليبرالية آنذاك؛ مثل بريطانيا وأمريكا وغيرهما.

[9] من بافاريا، إحدى أكبر ولايات ألمانيا الست عشرة، كانت في الماضي مملكة مستقلة إلى حين انضمامها إلى الدولة الألمانية في أوائل القرن العشرين. وتتسم بمجتمع فلاحي محافظ ومتدين جداً.

[10] كونفوشيوس (551 ق.م)، أول فيلسوف صيني يلقب بنبي الصين. فلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية، وعلى أن يكون الحاكم خادماً للشعب طبقاً لمثل أخلاقي عال، وليس الشعب خادماً للحاكم. ومن الحكم التي اتخذها كونفوشيوس قاعدة لسلوكه تلك التي تقول: "أحب لغيرك ما تحبه لنفسك". استمرت فلسفة كونفوشيوس تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرناً، إلى أن تحولت إلى الشيوعية وأخذت تبتعد عن هذه الفلسفة.

[11] توماس مور (1478–1535) فيلسوف وكاتب إنكليزي اشتهر بكتابه **المدينة الفاضلة**. كان احد أبرز المناضلين من أجل انعتاق الدين المسيحي من براثن المركزية البابوية (الكاثوليكية) وحكم الملكية "المنزلة"، ليصبح أقرب لهموم الفرد الأخلاقية. وقد دخل في صراع مع الملك هنري الثامن أدى به إلى الإعدام. تخيل توماس مور وجود دين في مدينته الفاضلة، إلا أنه دين شخصي بارد لا أثر له في الحياة.

[12] لينين أو فلاديمير ليتش أوليانوف (1870–1924) ثوري روسي قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ضد حكم القياصرة ومؤسس

المذهب الماركسي اللينيني الثوري. كما كان لينين أول رئيس للإتحاد السوفييتي.

[13] فولتير أو فرانسوا ماري أرويه دو فولتير (1694–1778)، فيلسوف وصحافي فرنسي من أوائل مؤسسي حركة التنوير الفكري في أوروبا. لم يكتفِ فولتير في كتاباته بنقد الكنيسة الكاثوليكية فحسب، بل انتقد المجتمع الفرنسي أيضاً. ومع صدور كل كتاب من مؤلفاته كان يتعرض للمنع والمصادرة. من أهم أعماله **كانديد**، ومسرحية **أوديب**. بالنسبة للملك لويس السادس عشر الذي أعدم على يد الثورة الفرنسية، فإن أفكار فولتير وجان جاك روسو هي التي دمرت النظام الملكي في فرنسا. تلك هي الجملة التي صرخها الملك في السجن قبل إعدامه. بمعنى أن أفكارهما هي التي حاربت الاستبداد والعبودية، فأهمية فكر فولتير وعظمته ساهمتا مباشرة في القضاء على التعصب الديني في فرنسا وعلى النظام الملكي. سجن في الباستيل في عهد الوصي على العرش الفرنسي فيليب دي أورليون لتهكمه على الحياة الغرامية لهذا الأخير، وفي تلك الفترة كتب ملحمة أوديب التي نالت نجاحاً كبيراً عند عرضها على المسرح. بعد موته، كُتب فوق قبره: "حارب الملحدين والمتزمتين. أوحى بكتاباته بروحية التسامح، طالب بحقوق الإنسان ضد العبودية ونظام الإقطاع. شاعر، مؤرخ، وفيلسوف جعل آفاق النفس البشرية تتسع وتتعلم معنى الحرية".

[14] جان دارك (1412–1431) ملقبة بـ"عذراء أورليان" شخصية رمزية وطنية مهمة في تاريخ فرنسا. كانت تقية جداً، ويقال إنها سمعت أصواتاً سماوية تحضها لمحاربة قوات الاحتلال الإنكليزي. ترجع شهرة جان دارك إلى نجاحها في رفع حصار قوات الاحتلال الإنجليزي عن مدينة "أورليان" الفرنسية العام 1429، حيث استطاعت لقاء الملك الفرنسي "شارل السابع" بمدينة "شينون" وأقنعته بالمهمة العسكرية التي نذرت نفسها لها، وهي تخليص أورليان من الإنجليز. وتقدمت جان التي كانت تبلغ حينها 13 عاماً على رأس جيش صغير، وتمكنت من الانتصار في معركة بمدينة "بواتيه" وطرد جيش الاحتلال من أورليان. سنة 1431، نعتت بالمشعوذة وحرقت حية في مدينة "روان" الفرنسية.

[15] لوكريشياس أو لوكريس (نحو 98–55 ق.م.)، فيلسوف وشاعر روماني يرى في الخوف من الموت، هذا الخوف الذي لا ينجم عنه سوى ضروب من القلق والأوهام السياسية والدينية، عائقاً أساسياً يحول دون سعادة الإنسان. قريب من الفيلسوف ابيقوروس. يؤكد في كتابه **طبيعة الأشياء** على أهمية الحياة ضمن نمط شعري يحفل بالطبيعة وحيويتها.

[16] كريولانس، بطل مسرحية **مأساة كريولانس** كتبها وليم شكسبير العام 1608. تدور أحداثها في روما وكريولي في القرن الخامس قبل الميلاد. ملخصها أن أحد الأشراف المعروفين في روما (كايوس مارسيوس) الذي يتمتع بقوة بطولية واستقامة وكبرياء قاد حملة حربية ضد مدينة كريولي انتصر فيها وعاد بالغنائم لروما، ولذلك لقب كريولانس) أي صاحب كريولي). في مدينته، أرادوا منحه لقب قنصل، لكن "ممثلي" الشعب وجدوا فيه خطراً على مصالحهم الشخصية، فحّرضوا العامة ضده، فأبى كبرياؤه أن يقف في الساحة ويعرض على الناس جراحه التي أصيب بها وهو يدافع عن الوطن. أثار "ممثلو" الشعب الناس ضده، فتصدى لهم. حكم عليه بالنفي من روما، فترك أمه وزوجته وطفله وغادر روما منفياً مطروداً في الوقت الذي أوشك فيه أن يصبح قنصلاً مكافأة له على بطولاته في الحرب. ولينتقم من طرده، ذهب مباشرة إلى الزعيم أوفيديوس خصمه في حرب كريولي الذي سلمه قيادة جيشه فتمكن من محاصرة روما، وهدّدها بالحرق إذا لم تسلّم بشروط مهينة. توسل إليه شيوخ روما لكنه لم يقبل إلا تحطيم المدينة التي أذلته ونبذته. فقرر "ممثلو" الشعب اللجوء إلى أمه وزوجته وولده طالبين منهم بكثير من الاسترحام أن يلينوا قلبه. عندها يجتاز الأهل الأسوار ويركعون أمام خيمته طلباً للرحمة والعطف على روما، وأمه تقول له: "لو سكتنا لنطقت ثيابنا وحالتنا عمَّا يفصح عن الحياة التي عشناها منذ نفيك." حيال هذا الموقف الصعب يلين كريولانس ويقبل الصلح مع روما مكتفياً بإهانتها بدلاً من إحراقها فيعود إلى كريولي. ولكن أوفيديوس يتآمر عليه لما وجد من حب الجنود والشعب له، فيقتله، ويخاطب شعبه معبراً عن فرحه بالنصر، وهو يقف على جثة كريولانس.

[17] جوناثان سويفت (1667–1745)، كاتب ايرلندي من أصل إنجليزي، اشتهر بكتاباته الهجائية ونقده الهزلي ونظرته السلبية للإنسانية. من أشهر كتبه **سفريات جاليفر** (Gullivers travels)، حيث يسافر البطل جاليفر إلى بلاد الأقزام، وثم بلاد العمالقة، ويتعرف من خلال لقاءاته إلى أنماط عجيبة من البشر تُظهر بشكل مجازي غباء الإنسانية. كما كتب **معركة الكتب وحكاية البرميل**، نص شرس اتجاه غباء معاصريه. بعد موته من جراء أمراض عقلية، كُرِّس ماله لتشييد مصح عقلي وكتب فوق قبره:

"هنا يرقد جوناتان سويفت عميد هذه الكاتدرائية، الذي من الآن فصاعداً لن يكون قلبه ممزقاً من السخط الشرس. اذهب في طريقك أيها المسافر، وقلد إذا استطعت الرجل الذي كان يدافع عن الحرية . . . ".

[18] وليم داروين (1809–1882)، عالم أحياء بريطاني. اكتسب شهرته كواضع لنظرية التطور العام 1838 التي تؤدي في النهاية إلى تغيير وتحسين مواصفات النوع كافة عن طريق الانتخاب الطبيعي، حيث قام بدراسة التحول في الكائنات الحية عن طريق الطفرات. صدر كتاب داروين بعنوان **أصل الأنواع** في العام 1859، وكان بمثابة نقطة البداية في دخول فكرة الأصل المشترك للكائنات لتفسير التنوع في الطبيعة إلى المجتمع العلمي. عُيّن داروين بعدها عضواً في المجمع الملكي، وتابع أبحاثه وتأليفه للكتب عن النباتات والحيوانات، بما فيها الإنسان. ومن أبرز كتب داروين كتاب **سلالة الإنسان**، وآخر ما كتبه كان حول دودة الأرض. وقد أثارت نظريته جدلاً كبيراً مع نظريات الخلق الإلهي المنبثقة من الديانات التوحيدية، إذ أثبتت انحدار الإنسان من سلالة القرود وليس من سلالة آدم وحواء.

[19] جورج فردريخ هيغل (1770–1831)، أحد عمالقة الفلسفة المثالية الألمانية التي قامت على قراءة للتاريخ تؤمن بتقدم الإنسان من حيث إنجازاته العلمية والمعرفية وبمبدأ الوعي بالذات العقلانية كأساس لهذا التقدم. والتناقض الذي يشير إليه بريخت هو أن فلسفة هيغل شكلت أساساً مهماً للدولة الرأسمالية الصناعية الوطنية (البرجوازية) التي أسسها أوتو فون بيزمرك (Otto von Bismarck، 1815-1898) التي انطلقت من إمارة بروسيا لتصبح الإمبراطورية الألمانية، ولكن في الوقت نفسه، شكلت أفكار هيغل عن الطبيعة الجدلية والمتقلبة للواقع والتاريخ أحد أهم منابع الفكر الاشتراكي لكارل ماركس وفريدريخ إنجلز ولاسيما مفهوم الجدلية المادية (انظر أعلاه).

[20] الهكتار يساوي 10,000 متر مربع أو عشرة دونمات.